



مجلة التراث

J-ALT

2018/ Vol:8 N°01

Available online at <http://www.asjp.cerist.dz>

الرحلة الجزائرية فلي العهد العثماني (1518-1830) مصدر أساسي للكشف  
عن الحدث التاريخي الاجتماعي  
- الآفات الاجتماعية نموذجاً -

الأستاذة لبصير سعاد. المدرسة العليا للأساتذة، قسم التاريخ والجغرافيا.

الملخص:

يعتبر الخطاب الرحلي من الجزائر إلى الحجاز في العهد العثماني وثيقة تاريخية ومصدرا هاما لوصف الثقافات الانسانية، حيث يقدم الرحالة أخبار شاهدها وبحث في كنفها، ومنها الأخبار الاجتماعية، لما يقف عند ماهية الظاهرة الاجتماعية وإكساب مفاهيمها صيغة تاريخية.

Abstract:

The journey's speech (or Traveller reviews) from Algeria to Hejaz in the Ottoman period is considered as a historical document and an important source for describing human cultures. In which the traveller presents news that he has witnessed and searched, including social news, where he insists on the social phenomenon and gives its concepts a historical formula.

## مقدمة:

تعد الرحلة الحجازية من أهم أنواع الرحلات وأقدمها لدى العرب والمسلمين، إذ هي رحلة حجية نسبة إلى هدفها الرئيسي، ورحلة حجازية باعتبار المكان المقصود وهو بلاد الحجاز، فهي رحلة دين لأداء فريضة الحج، ورحلة دنيا من خلال الانتقال إلى بلاد المشرق وباعتبار أهدافها وأسبابها وسياقاتها العلمية.

خصوصيتها لما يحولها الرحالة من تجربة إلى نص حيث تجمع بين الجانب الروحي والديني الذي يمثل الدائرة المرتبطة بالمشاعر المقدسة وفضائها المعرفية والثقافية، تطبق فيها مفاهيم وآليات الكتابة الأدبية للملاحظات ورؤى الرحالة المعاصر لكل التطورات والتحديات التي حصلت خلال رحلته، حتى أصبح هذا الخطاب يقدم صورة متكاملة للظاهرة الأدبية، إلا أن ماهيته وموضوعاته ومناهجه تجعله وثيقة هامة تكشف عن بعض التفاصيل التي تساعد المؤرخ في بناء صورة متكاملة حول بعض مظاهر الحياة الواقعية ورسم ملاحظاتها في فترة زمنية معينة، خاصة وأن الرحالة غالباً ما يستلهم التاريخ في كتابة ويوظف معطيات تاريخية.

من هذا المعطى كان اختيارنا لموضوع "الرحلة الحجازية في العهد العثماني (1518-1830)"، مصدر أساسي للكشف عن الحدث التاريخي الاجتماعي - الآفات الاجتماعية نموذجاً -، وذلك من خلال التعامل مع هذا الخطاب كمصدر تاريخي يزودنا برصيد معرفي شمولي.

وقد كان الاهتمام بهذا الموضوع رغم ذلك الزخم المعرفي الذي حفلت به الرحلة لرصد بعض الآفات الاجتماعية في بلاد المغرب والمشرق كسلوكات اجتماعية تثير الحدث التاريخي.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

إبراز دور الخطاب الرحلي إلى الحجاز في الكشف عن بعض مجالات الحياة الاجتماعية.

التعرف على بعض الآفات الاجتماعية السائدة في تلك الفترة.

استنطاق الخطاب الرحلي الأدبي وإبراز سياقاته التاريخية من خلال الآفات الاجتماعية، وتحقيقاً لهذه الأهداف اعتمدنا مقارنة

تحليلية وظيفية تاريخية من خلال تحديد السياقات التي وردت فيها الآفات الاجتماعية على النمط التالي:

## 1- السياق التاريخي للآفات الاجتماعية ضمن الخطاب الرحلي:

تعيش المجتمعات في إطار منظومة من القواعد والقيم والتقاليد التي يسلم بها، ويعدّها إطاراً مرجعياً لعمليات التفاعل التي تحدث بين أفرادها، إذ أن المجتمع هو بناء من الأفراد الذين تحكمهم حدود التكافل والتضامن واللغة والهوية الثقافية، يعيشون معا في شكل منظم ضمن جماعات منظمة ومتعاونة، تتبادل المصالح فيما بينها وتتعايش سلمياً على تطوير ثقافتهم ووعيهم المشترك الذي يطبع المجتمع وأفراده بصفات مشتركة تمثل البنية الأساسية في جميع الميادين<sup>1</sup>.

حيث تحيا الأفراد ضمن مجتمعاتها، وتسعى جاهدة لتحقيق سعادتها، التي ربطها الفلاسفة القدماء بالأخلاق الحميدة والأعمال الخيرة والالتزام بالقوانين والأعراف والعادات والتقاليد السائدة في ذلك المجتمع، وعليه يقول أفلاطون { "XE أفلاطون" } (أي كائن لا يبلغ غايته ولا يحقق سعادته وخيره الأقصى إلا بأدائه لوظيفته الخاصة به على أحسن وجه، وهذا هو المعنى الحقيقي للسعادة وهو شرطها الأساسي...) <sup>2</sup>، وباعتماد قراءة رصينة لدى الفلاسفة المسلمون يبرز هذا التوجه فوجد الفارابي ينادي بإقامة (مدينة فاضلة تتمتع بمقومات مثالية سواء كانت عقلانية أم أخلاقية كأحد الحلول الرئيسية لعلاج حياد الحكم والفوضى الاجتماعية...) <sup>3</sup>، التي انتشرت في المجتمعات الإسلامية لما ابتعدت عن تعاليم الدين، فنتج عنه آفات اجتماعية متعددة الأشكال، كما القرآن والسنة نجدتها تحفل بالحث على مكارم الأخلاق وفضائلها من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ <sup>4</sup>.

وعليه أصبح الجانب الأخلاقي من الثوابت الفاعلة في المجتمعات، وكذا من المحددات التاريخية له باعتبار أنها أحداث واقعية مرتبطة بزمان ومكان واطراف حقيقية فاعلة لها، وهو ما تم الكشف عنه من خلال الخطاب الرحلي الحجازي من الجزائر { "XE الجزائر" } خلال العهد العثماني، لما ساهم في تشكيل صورة واضحة عن بعض الآفات الاجتماعية التي تلعب دوراً هاماً في اختلال التوازن الاجتماعي.

إن ارتياد مجال الآفات الاجتماعية في المجتمعات العربية خلال العهد العثماني ضمن الرحلة الحجازية بمعناه الواسع والمتشعب، يؤدي حتماً إلى اعتماد مقاربات مندمجة ومتداخلة تحول الاهتمام من دراسة هذه الآفات كأحداث اجتماعية إلى البحث في البنية التاريخية، أي الاهتمام بهذه الظاهرة من زاوية الآليات الاجتماعية ومقاربتها أنثروبولوجياً ضمن تأويل ما تخلفه من آثار في الواقع والفكر والتمثيل.

وذلك رغم صعوبة تمييز فرع معرفي للآفات الاجتماعية، إلا أنها تحمل في طياتها مفهوم للتاريخ يلوح كمادة مصهورة ضمنياً يتموضع بين عدة نقاط التقاء الفردي والجماعي الزمن الطويل واليومي، اللاوعي والإرادي، النبيوي والظرفي، المهمش والعام، واعتباراً من

<sup>1</sup> بيار يوثث وميشال إيزار: معجم الإثنولوجيا، تر، مصباح الصمد، مجد للنشر و التوزيع، 2006-1427، ص 817.

<sup>2</sup> مرحبا محمد عبد الرحمان: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر { "XE الجزائر" }، 1983، ص 207.

<sup>3</sup> موزة أحمد راشد { "XE راشد" } العيار: القيم الأخلاقية بين الفكرين الإسلامي والعربي في عصر العولمة، ط1، الدار العالمية للنشر والتوزيع، 2008، ص 151.

<sup>4</sup> القرآن الكريم: سورة النحل، الآية 90.

ذلك يتم تناول الآفات الاجتماعية كسلوكات جادة أو هامشية تشير الحدث التاريخي وتكشف عن كنهه، وقد ورد هذا المضمار ضمن الخطاب الرحلي الحجازي على النحو التالي :

## 1-1- استباحة حرمت الله ومناهية:

حيث اغتبط الرحالة من الجزائر {XE الجزائر} من قبح الصفات والأخلاق التي وجدوا عليها المجتمعات التي زاروها أو تلك التي انتشرت في أوطانهم، والتي صدرت عن بعض الفئات الاجتماعية من الخاصة أو العامة، من ذلك ما أشار إليه الرحالة الجزائري ابن عمار {XE ابن عمار} لما شاهد اختلاط النساء بالرجال بمبنى وعرفات والمطاف وكذا ليلة المولد، فنقل مستنكرا عن الشيخ ابن حجر أن " الاختلاط المحرم ليس داخلا في حقيقة العبادة... يجب على الخلق كافة إذا استطاعوا تجنبه.. فكل مأمور بترك الطيب والزينة، وسائر دواعي الزنا بل الجماع الحلال... إن ما في ليلة المولد بالحرمين أقبح وأشنع... وأكثر الناس لا يمنعون النساء من الإسراف والتطلع على الرجال ونظرهن إليهم وذلك قبيح ومكروه على مقابلة إذ لم يكن شهوة ولا فتنة... والواقع من النساء في المواليد كثيرا ما يترتب عليه الشهوة والفتنة في نظر النساء إلى الرجال... كذا"<sup>1</sup>.

كما يحدث الرحالة أيضا عما يظهر في أيام الإسراء والمعراج من مخالقات وتجاوزات منها الاختلاط والإسراف في استعمال المشاعل والأضواء، وذلك نقلا عن شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهشيمي المكي في مؤلفه (إتمام النعمة الكبرى لمولد سيد ولد آدم...)<sup>2</sup>.

وتماثل معه الرحالة الجزائري المصعبي {XE المصعبي} بتقديم مشاهد الفساد وانتهاك حرمت الله في الحجاز {XE الحجاز} " لما عبر عنها قائلاً: "لما انتهيت إلى كعبته العظيمة أصابني لما رأيته فيها وما حولها أمر فغشني ما غشيني شأن ملم وهو استباحة حرم الله ومناهية في حرمه ومسعاها وارتكاب معاصيه... كذا"<sup>3</sup>، وقد أشار ضمن رحلته أن السبب في تأليف رحلته هو ما شاهده من ذلك. وفي نفس السياق تحدث الرحالة الورثلاني ضمن رحلته إلى الحجاز {XE الورثلاني} مطولا عن انتشار أفات اختلاط الرجال بالنساء، وقد لاحظ ذلك كثيرا في الجزائر {XE الجزائر} من خلال جولاته فوصف أهل إيلمان {XE إيلمان} بالقبائل بانهم "...والحمد لله لا يخلون من أهل الخير رجالا ونساء... وإن كان فيهم أهل جرأة وتعد... نعم ما وجد منهم مما لا يجلب من اجتماع الرجال والنساء عند السماع من الرقص والبكاء والتباكي والصياح وذكر الشوق من غير اشتياق والعشق من غير عشق... فإنها من دسائس اللعين الشيطان الرجيم... كذا"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> (ت بعد 1205هـ) أبي العباس سيدي أحمد بن عمار (ت بعد 1205هـ): نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانا، الجزائر،

1330هـ/1902 {XE ابن عمار}: الرحلة، ص 99-101. صاحب الرحلة هو أبي العباس أحمد بن عمار ارتحل إلى الحجاز سنة 1166هـ وظل مجاورا بها 12 سنة، الف على أثرها رحلته "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"

<sup>2</sup> نفسه، ص 101.

<sup>3</sup> الشيخ إبراهيم ابن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله ابن عبد العزيز التميمي السيجيني المصعبي (ت 1232هـ/1817م): رحلة المصعبي، ط1، تح: وتع: يحيى بن بهون، حاج أحمد، صدر هذا الكتاب في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 72. هو ابن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز التميمي السيجيني المصعبي: عالم ورحالة جزائري من منطقة يسجن وقطب من أقطاب بني ميزاب له رحلة حجازية ألفها لما انتقل إلى الحج سنة 1196م-1781هـ. أنظر إبراهيم بن بحمان المصعبي: رحلة المصعبي، تح: يحيى بن بهون..

<sup>4</sup> الورثلاني الحسين بن محمد {XE الورثلاني}: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تع ابن مهنا، تحعمار بسطة، محفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، صدر في إطار الجزائر عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011، مج 1، ص 112. هو رحالة جزائري من بني ورتلان ببني يعلى زبر مصنفه اثر ارتحاله إلى الحجاز ثلاث مرات (1153-1168هـ-1179هـ).

وفي زمورة {XE زمورة} اغتاز لما رآه من نسائهن واصفا " زمورة وطن واحد كثير الأمطار والعيون، ومع ذلك كثير المعاصي والبدع، وقل الحكم فيها وارتفع وزد لما ذكر، فنساؤهم باديات مكشوفات هداهم الله لحجبهن... كذا"<sup>1</sup>، ويستطرد عن ذلك بقوله: (فوجد النساء الطيبات المتبرجات كأئمن في ليلة الزفاف يهمن في الأزقة والعيون مكشوفات العورات باديات المستحسن كالصدور والشدى، وتحت الإبط والساق والفخذ... من رأهن فتن بهن... كلهن أو جلهن يفتخرن بذلك... فلا يسمعون إذ وعظتهن ولا يرجعون إن ذكرتهن... وقد ألقوا ذلك من آبائهم وأجدادهم... كذا"<sup>2</sup>.

ولهذا أكد الرحالة الورثلاني {XE الورثلاني} على ضرورة تدخل الحكام للقضاء على هذه الظاهرة التي انتشرت في معظم ربوعها حيث " يجب على من ولاه الله أمور المسلمين أن يرفع ذلك بالسيف عن أوطاننا، لا سيما وطن بني عامر وبني دراج ووطننا أي بني ورثيلان، وكذا ما يصير في بجاية {XE بجاية} آخر رمضان بمسجد البلوط في بني يعلى، وكذا محل الأولياء في كل مكان كقبر سيدي علي بن شداد وسيدي يحيى العبدلي وسيدي عبد الرحمان الثعالبي {XE الثعالبي} في الجزائر {XE الجزائر}، وسيدي سعيد السفري في قسنطينة {XE قسنطينة} وجبل المثقوب في بني ورثيلان وغيرهم... كذا"<sup>3</sup>.

وفي تونس {XE تونس} أيضا له حديث عن الانحلال الخلقي وعمما شاهده في حماماتها، خاصة في منطقة حمامة قابس {XE قابس}، إذ يقول: " رحلنا صبيحة فقطعنا السبخة بعسر وشدة... فنزلنا في حمامة قابس... وفيها حمام... من الله تعالى... يسخن كأنه يغلي بالنار... وفيه بيت يستر المغتسلين وخارجه نهر منه يجتمع فيه الرجال والنساء من غير ستر في النهار كل واحد يرى عورة الآخر من غير تغيير ولا نكير... كذا"<sup>4</sup>، لذلك غضب الرحالة، وعبر عن غضبه قائلا: "... فلما رأيتهم اقشعر جلدي وتحركت فرائضي فملأت حجري بالأحجار، وصرت أضرب كل من هناك من النساء والرجال... ففر الكل ولم يبق أحد في ذلك الوقت إلا هرب... كذا"<sup>5</sup>، وغير ذلك "انتشر اللواط والزنا في حمامات وأسواق ودكاكين ومقابر تونس بشكل كبير"<sup>6</sup>.

وفي مصر {XE مصر} أيضا تحدث الرحالة جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس} عن هذا النوع من الانحلال الخلقي قائلا: "... من الصعب أن أقدم بيانا كاملا بوقائع الفجور والانحلال لكنني لا أستطيع أن أتجاهل الحديث في هذا الموضوع... وفي مصر في الفترة التي زرتها هناك شوارع معينة ومواقع خاصة ببيوت الدعارة، وقد تعودت الداعرات أن يجلسن عند أبواب بيوت الدعارة، أو أن يلبسن قمصانا داخلية وسراويل حريرية وعباءات كعباءات الرجال من حرير، ويعقدن حول خصورهن أحزمة حريرية... ويضعن خناجر في أحرمتهن... وتضع كل واحدة من هؤلاء الداعرات (نساء الهوى) فوق رأسها غطاء رأس من قطيفة مزينة بالآلئ الثمينة... وتظفر الداعرات شعورهن ضفائر طويلة تصل إلى أعقاب أقدامهن، وقد علقن في أطراف ضفائرهن أجراسا صغيرة أو أشياء شبيهة تحدث أصواتا عند ارتطامها بأعقابهم أثناء سيرهن ويقضن في أنوفهن الجواهر، وغير ذلك من أساليب التبرج... وهؤلاء السيدات

<sup>1</sup> نفسه، ص 191.

<sup>2</sup> نفسه، ص 376-377.

<sup>3</sup> نفسه، ص 378.

<sup>4</sup> الورثلاني {XE الورثلاني}: الرحلة، مج 1، ص 267.

<sup>5</sup> نفسه، ص 267-268.

<sup>6</sup> نفسه، ص 663-664.

يسرن في الشوارع حاملات بيبياهن (جمع بيبية pipe)... ويدخن وإذا جلسن أمام بيوتهن عملن على الإيقاع بالرجال العابرين... وقد كن قادرات على السيطرة على مشاعرهن فمقابل ثلاث بارات (parrach) أو أربع، يمكن لأي رجل أن يقضي شهوته الجنسية معهن، لكنهن ماكرات جدا فإن أي واحدة منهن لا تشجع الرجل الذي يضاجعها للبقاء معها أكثر من الوقت المحدد له، والذي يتناسب مع المبلغ الذي دفعه، وذلك حتى لا يضعن على أنفسهن فرصة استقبال رجل (زبون) جديد... كذا<sup>1</sup>.

وهو بذلك يعطي مفهوما للتاريخ يلوح كمادة مصهورة أساسها فئة مهمشة في مجتمع أو مسكوت عليها في التاريخ، حيث ركز جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس} ضمن هذا النص على بنات الهوى والبغاء، كشهادة حية لظاهرة اجتماعية في مصر {XE "مصر"}، ومثله الورثاني {XE الورثاني} فيما تعرض إليه في هذا السياق، الذي أبرز فيه المرأة المترجحة العارضة لجسدها كعنصر تاريخي فاعل في حركية المجتمع (مع رفضها لنماذج المجتمع الأخلاقية، أو يمكن أن تكون مقصاة من تراتيبية قيم ذلك المجتمع...)<sup>2</sup>. فالنساء ضمن هذا الانحراف تقدم مستويين من الواقع الاجتماعي هما مستوى القيم الأخلاقية ومستوى العلاقات الاجتماعية، وعليه التوجه نحو تاريخ اجتماعي انطلقا من وعيه بتحليل سلوكيات لفئة مسكوت عنها في التاريخ التقليدي، ومن جهة أخرى دفع السيكلوجيا التاريخية نحو تيار معاصر في البحث التاريخي، وهو التاريخ الكمي أو الجدولي، الذي يقصد به (تجزئة المعرفة التاريخية... فلم يعد الأفق أفق التاريخ الكلي، ولكن أفق تفتيت الكليانية إلى عدد لا يحصى من المواضيع المفردة التي يجب تحديدها وبنائها...)<sup>3</sup>، انطلقا من ركام الوقائع والآراء والتعبيرات التي تظهر في تنافر كلي أول الأمر<sup>4</sup>.

وبناء على هذه المرتكزات تبرز (مسألة استباحة محارم الواقع طويل الأمد)<sup>5</sup>، كبنية لتاريخ اجتماعي للتمثلات، أي تاريخ العقلية الذي يلتقي فيه المؤرخ مع عالم النفس الاجتماعي فيتم التعامل ضمينا مع مفهوم السلوك أو الموقف كحدث تاريخي، أي استعمال مؤرخ العقلية المناهج الكمية التي يشتغل بها علماء النفس الاجتماعي، وذلك مع بعض التكييفات لتفسير المشكلات النفسية والأخلاقية في المجتمع، وفهمها يعتمد على النظرية السلوكية (والتي أساسها السلوك بكل أنواعه، وكذلك التفكير والشعور، إذ هو استجابة سببها محرضات، لذلك تؤكد هذه النظرية ضرورة البحث في سلوك الفرد وفاعليته...)<sup>6</sup>، أي التأكيد على دور الرقابة الثقافية في السلوكات البيولوجية<sup>7</sup>، وعليه تنقل على نحو خاص السيكلوجيا الاجتماعية نحو الإثنولوجيا، ومن ثم نحو التاريخ، وتفهم الجاذبية المتبادلة بين تاريخ العقلية، وعلم النفس الاجتماعي عبر مجالين الأولى تصاعد موازي لاستطلاعات الرأي والتحليل التاريخية

<sup>1</sup> جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس}: رحلة جوزيف بيتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية، دار الكتاب، 1995، ص 33. رحالة اوروبي من الجزائر الى مكة و مصر ، وهو اول اوروبي ارتحل من الجزائر الى الحجازو الف بذلك رحلته.

<sup>2</sup> جاك لوغوف: تر ونق: محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ص 438.

<sup>3</sup> فرانسوا دوس: التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، تر: محمد الطاهر منصور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009، ص 272.

<sup>4</sup> Caseneuve (J) : Les mentalités archaïques, colin, Paris, 1961, p 166.

<sup>5</sup> فرانسوا دوس: التاريخ المفتت، ص 174.

<sup>6</sup> Duprout (A) : Problèmes et methodes d'une histoire de la psychologie collective, annales 16, Janvier-février 1961, 1961, p p 3-11.

<sup>7</sup> شاكرا مصطفى سليم: قاموس الأنثروبولوجيا، إنجليزية-عربي، ط1، الكويت، 1981، ص 104.



للسلوكات من جهة، ونمو مجموعة من الدراسات حول الإجرام والمهمشين والمنحرفين<sup>1</sup>، من جهة أخرى، وهو ما برز بجلاء ضمن الخطاب الرحلي الى الحجاز من خلال تناوله للظاهرة

## 1-2- اللصوصية:

خلافا للتاريخ التقليدي يتخلل الخطاب الرحلي حديثا عن فئات مهمشة من خلال التركيز على أعمالها وخصائصها، حيث برز ذلك بوضوح في المجتمع العربي خلال العهد العثماني، من خلال نماذج متعددة حول مظاهر الانحراف والإجرام أهمها اللصوصية كعنصر فاعل في تاريخ تلك المجتمعات، والذي يمكن أن نسوقه ضمن الهوامش.

لقد اهتم بعض المؤرخين خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالمشردين والمجرمين في الماضي، حيث (تأثروا ازدواجيا بتقليد أدبي مدفوع نحو القرائبية الاجتماعية، وهو تقليد يعود إلى عصر النهضة ومنحه الرومانسيون نفسا جديدا وبدايات قانونية وإحصائية تتعلق بالإجرام...)<sup>2</sup>.

وفي هذا السياق يسجل للرحلة الحجازية من الجزائر {XE الجزائر} خلال العهد العثماني في سياق تاريخي اجتماعي تمكنا من إعادة قراءة التاريخ انطلاقا من الحاجة إلى الأمن، وكذا إلقاء الضوء على جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية والنفسية والذهنية، وحتى الاقتصادية للإنسان العربي خلال العهد العثماني، حيث يؤثر الخوف من اللصوص في عدد الحجاج، ومن ثم ضرب الاقتصاد العربي للمناطق التي يمر بها ركب الحج، ومن جانب آخر تصور مجتمع مصدوم بانعدام الأمن (نقصد به مجتمع ركب الحج وهو مجتمع متحرك)، وعلى هذا الأساس يمكن تناول ظاهرة اللصوصية في العهد العثماني في الرحلة الحجازية من زوايا مختلفة ومقاربات متعددة توزعت بين السياق التاريخي والأنثروبولوجي والاجتماعي، مسترشدة بخلاصات علم النفس الاجتماعي.

لقد حفلت الرحلات الحجازية من الجزائر {XE الجزائر} خلال العهد العثماني بأمثلة متعددة حول ظاهرة اللصوصية وقطاع الطريق الذين كانوا يهددون حياة الحجاج حتى أصبحت الفتاوى تصدر في إسقاط الحج بسبب ذلك وهو ما أورده الرحالة الورثلاني {XE الورثلاني} بقوله: "قد زاد الظلم والتعدي، نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطا من الظلم من الولاة وأصحابهم والعرب والظلم الكبير من الشياطين زادوا في الارتياش للظلم والشكوى... كذا"<sup>3</sup>، وهو ما يؤثر سلبا على اقتصاد المناطق التي يمر بها الركب.

فيبرز أن تناول الرحلة قضية اللصوصية متأصلة على تاريخ العقلية، بتناوله موضوع الخوف من هذا الخطر في أوساط الحجاج، وهو ما أشار إليه الرحالة التتلاي عند {XE التتلاي} تعرضهم للسرقة في الطريق بين مصر {XE مصر} والحجاز بقوله: "...بعد أن جاوزنا بندر عجرود بقليل وطرقنا (طوقنا) سراق العرب تلك الليلة وأخذوا الأكراب) ثلاثة جمال... كذا"<sup>4</sup>، وقد

<sup>1</sup> أنظر أيضا Levy Brukl (L): Les fonctions mentales dans la société inferieures, Alcan, Paris, 1910, p 130.

Britchard (E): Enthropology and history, Cambridge, 1961, p 123.

<sup>2</sup> جاك لوغوف: التاريخ الجديد، ص 438.

<sup>3</sup> الورثلاني {XE الورثلاني}: الرحلة، مج 2، ص 328.

<sup>4</sup> عبد الرحمان التتلاي: رحلة الشيخ التتلاي إلى الحج (1188م-1174)، دراسة للأبعاد الجغرافية والسوسيواقتصادية للمغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق خير الدين شترة ودرار عبد الرحمان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، قسنطينة، عاصمة الثقافة العربية، 2015، ص 17. <sup>4</sup> هو عبد الرحمان بن عمر بن محمد التتلاي: عالم جزائري من منطقة تتلان، بأدرار، زبر رحلته إلى الحجاز بعد تنقله لأداء فريضته، أنظر أنظر محمد بن عبد الكريم التمنطيبي: جوهر المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، مخطوط الخرابة بتمنطيبي، أدرار، الورقة 39.



كان هذا الخطر يثير الخوف في نفوس الحجاج، وهو ما أشار اليه الرحالة لما وصل إلى منطقة ينبوع فوجد رجلا مصري خائفا لما سمع بأن أعراب بدر يترصون بالركب بقوله: "لما وصلنا ينبوع... أقمنا به على الظهر ووجدنا المصري متحيرا لأنه بلغه أن أعراب بدر عزموا عليهم إلا أن يعطوهم ما ذكر من المال... كذا"<sup>1</sup>.

وذلك الخوف كان عاملا مؤثرا في سلوك الحجاج إذ كانوا ولشدة خوفهم يتفادون الطريق التي يتهددهم فيها الأعراب، من ذلك أن الشيخ التلاني "XE التلاني" غير طريق دخوله إلى مكة "XE مكة" احتياطا من خطرهم ويقول في ذلك: "وصلنا مكة واغتسلنا وأردنا الدخول من كداه اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فمنعنا شيء وقع من الأعراب فيه فأخذنا ذات اليمين.. كذا"<sup>2</sup>.

وقد تماثل المصعبي "XE المصعبي" في ذكره لذلك، حيث تحدث عما تعرض له الركب في بسكرة "XE بسكرة" بقوله:

أتبنا بواد خالد يوم سابع أقمنا للورد يوم الثمانيا

رجال بني جلال غارت بخيلهم طليعة شمس إثر ركب قاليا

دخلنا بثنان الشهر شعبان بلدة تسمى بسكرى كثير الطواغيا<sup>3</sup>

وتناول الرحالة المقري "XE المقري" في رحلته هذه الظاهرة لما تحدث عن القرصنة في بلاد الحجاز "XE الحجاز"، إذ كان المرتزقة يترصدون السفن على ميناء جدة "XE جدة" ويقوموا بسلبها وقتل الحجاج، أو من يقاومهم أو يمتنع عن تقديم الأموال لهم، وقد ورد ذلك على لسان مفتي الحرم المكي عبد الرحمان بن مرشد في رسالة إلى المقري سنة (1029-1030هـ/1035-1036هـ) قائلا: "فهي على ما يعهده من القرار، غير أن المرتزقة تواترت عليهم ضوائق الأحوال فأجأتهم إلى مضايق الأهوال، حيث لم يصل سفن الحبوب ولا ناهم من محصول بندر جدة إلا ما يستغنيه أضعف الهبوب، فأحوال أهل الحرمين بسبب ذلك غير منتظمة وآمالهم في دفاتر اليأس أضحت منتظمة... كذا"<sup>4</sup>، وفي ثنايا هذا النص يبرز الجانب الاقتصادي متمثلا في قلة ما ورد إلى الحجاز بسبب القرصنة.

كما أنه في سياق الاصطباغ الإثنولوجي للخطاب الرحلي، وتفعيل المفاهيم الواردة في النص كأساسيات للكتابة التاريخية، يبرز الجانب السيكولوجي المحرك للسلوك اللصوص، وهي الحاجة الفيزيولوجية مثلما حسب نظرية ماسلو من جهة، أو الآثار النفسية لهذا السلوك على نفسية الأفراد (في الحجاز "XE الحجاز") من جهة ثانية.

<sup>1</sup> نفسه، ص 18.

<sup>2</sup> نفسه، ص 18.

<sup>3</sup> المصعبي "XE المصعبي": الرحلة، البيت 36-37-38، ص 76.

<sup>4</sup> أحمد المقري: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004، ص 58. وهو أحمد المقري المعروف بشهاب الدين أبو العباس المقري الف مصنفه بعد رحلته إلى الحجاز لاداء فريضة الحج أواخر رمضان سنة 1027هـ.

و بهذا تعتبر اللصوصية من أهم السلوكيات التي تناولتها الرحلة الحجازية من الجزائر {XE الجزائر} خلال العهد العثماني بأبعادها المتعددة فقدم الورتلاني {XE الورتلاني} عن ذلك تقرير شاملا عن ذلك متحدثا عن خطر الأعراب في منطقة النمامشة فيقول: "...وجدنا عرب النمامشة فهم أقبح الناس وأكثرهم شرا فمنهم من يأتي للشرقة ومنهم من يأتي للخطفة... وأخذوا منا بغلة وجملين... كذا"<sup>1</sup>.

وفي تونس {XE تونس} أيضا يورد الكثير حول اللصوصية فيذكر ما حدث للركب من تعدي من قطاع الطرق فيقول: "...تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله ورسوله الشيخ ابن روب وهو شيخ من شيوخ نفاوة خارجا عن ولاية صاحب تونس بأن استقر بوادي ريغ... في ثلاثين من الخيل وعشرين رجلا، ومعهم السلاح القوي والزاد على الإبل... فأعلمناه بأننا حجاج... وأظن أن الشيخ "يقصد شيخ الركب" أعطى له شيئا أحسبه فضه فذهب ونحن جددنا السير خوفا من شره... فلما ارتحنا... ووصلنا إلى الماء عند الضحى فغاروا علينا ونهبوا فرسا للشيخ... ثم غلبونا على الماء بأن نزلوا عليه... ودارو بنا بالخلفة وكثر الرصاص... كذا"<sup>2</sup>.

وفي قابس {XE قابس} أيضا سلم الحجاج من شر اللصوص لما "أتى أهل قابس يسوقون مع الركب... فأتى الأعراب فغاروا على إبل الركب فنهبوا جملين لصاحب سيدي أحمد بن حمودة، و أخذوا بغل سيدي يحيى بن صالح من وطننا... كذا"<sup>3</sup>. وعليه أكد الرحالة هذا الانحراف في تونس {XE تونس} وحدد أخطر معاقلمها في "...توزر وقابس محل الخطفة، بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة في يده إلا خطفوها فيأياك والغفلة فيها..."<sup>4</sup>.

ولم يسلم ركب الحجاج من هذا الخطر في ليبيا أيضا وعن ذلك يخبرنا الورتلاني {XE الورتلاني} ما حدث للركب في مسرارة بقوله: "فلما استقرنا بوطن مسرارة... وقد وقعت بين أيدي الحرامية أي المحاربين من العرب وتمكنوا من هلاكي فنجان الله منهم بجاهه... كذا"<sup>5</sup>، وفي الطريق إلى مصر {XE مصر} قرب مقرب في سطح العقبة حوشر الركب من طرف الأعراب وجرح أحد الحجاج الطرابلسيين بالرصاص، ثم توفي متأثرا بذلك<sup>6</sup>، ولما خرج الأرض الخالية القفرة، لم يكن يجوبها إلا اللصوص وقطاع الطرق، وقد علل سبب خلاء تلك المناطق بوجود الأعراب إذ "إنما خالية بالجور والظلم إذ العرب من قوي بينهم يأخذ غيره وتلك سنة فيهم... كذا"<sup>7</sup>، ويشير الرحالة إلى أن اللصوصية التي اتسع نطاقها في برقة {XE برقة} قد أدى أيضا إلى خرابها حيث ان "الظلم

<sup>1</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج 1، ص 236.

ماسلو توماس روبرت باحث سكاني امريكي مشهور بنظرية التكاثر السكاني في العصر الحديث له نظريته الشهيرة حول الاحتياجات الشورية للإنسان انظر: فتحي محمد عياد: علم السكان، ط3، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 200، ص 130.

<sup>2</sup> نفسه، ص 257-258.

<sup>3</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج 1، ص 268.

<sup>4</sup> نفسه، ص 128.

<sup>5</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج 2، ص 404.

<sup>6</sup> نفسه، ص 234.

<sup>7</sup> مختار الطاهر فيلالي: رحلة الورتلاني، عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د.ت {XE الورتلاني}، ص 147.

أهلكهم لا سيما حرب الحجاج فإن الله قد انتقم منهم بسببهم حتى تشاءوا منهم واستطاروا من أجلهم ليسع الطريق ويأمن الوفود... كذا"<sup>1</sup>.

وفي مصر "XE مصر" أيضا كثرت اللصوصية، وحدثنا الورتلاني "XE الورتلاني" عن ذلك بقوله: "...أعرف أهل مصر وغشهم فيري الرجل لك حسن الصنيع ويطن لك الخديعة والمكر... ودأبهم وديوانهم التحليل لأخذ أموالنا وسلب ما عندنا بمجرد الأباطيل والتظلم وإظهار المسكنة... ليأخذوا أموال المغاربة جهرة ظلما وعدوانا فما أقبحها من بقعة للحجاج المغاربة... كذا"<sup>2</sup>.

ويتماثل معه المصعبي "XE المصعبي" لما أشار إلى ما يقوم به حكام مصر "XE مصر" بقوله (لما دخلت مصر التي هي اليوم أم المعاصي وأساس ذلك الظلم الداني والقاصي الناشئ عن تعداد الحكام... لا سيما إبراهيم بك ومراد بك... فإنهما المواقدان نيران الأخذ والانتهاج لمتاع الخلائق كلهم ولو بغير سبب...)<sup>3</sup>.

وهو ما حدثنا به أيضا جوزيف بيتس "XE جوزيف بيتس" مؤكدا انعدام الأمن في مصر "XE مصر" اذ من "...من الخطورة أن يسير الغريب في الشوارع بعد إيقاد الشموع بل لقد علمت أنهم ينقضون على الغريب في رائحة النهار ويسلبونه ويضربونه ضربا مبرحا قد يفقده حياته، وكان ثمة رجل عجوز كان جارا لنا في الجزائر "XE الجزائر" وكان يقيم معنا في الخان نفسه... تعرض لاعتداء بعض الأوغاد بينما كان يسير إلى الشوارع الجانبية ولم تحسن حالته أبعد ذلك أبدا ومات في غضون أسابيع قليلة... كذا"<sup>4</sup>.

واستطرد عن ذلك لما أخبر عما يحدث بحرا من نهب للحجاج خاصة في نهر النيل إذ لا "...ولا يخلو نهر النيل من اللصوص الذين ينهبون القوارب وهم يكثرون في هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم بحرين في النيل من رشيد للقاهرة، ويعلم اللصوص أن الحجاج معهم مبالغ مالية وقد اعترانا الخوف من مهاجمتهم لنا لكننا عندما أطلقنا النار من أسلحتنا ولو هارين... كذا"<sup>5</sup>.

وعليه يولي جوزيف بيتس "XE جوزيف بيتس" ضمن هذا السياق أهمية للفئة الهامشية في مصر "XE مصر"، متمثلة في اللصوص، كما يبرز حقيقة موضوع الخوف من خطرهم وكيفية التصدي له من خلال استخدام السلاح وهي جزئية أشار إليها أيضا الورتلاني "XE الورتلاني" ضمن حديثه عن استخدام الحجاج للسلاح لما قال: "...رجع الكل إلى قرب السطح... غير أنهم أحاطوا بالركب فأراد بعض منا أن يضربهم بالبارود... كذا"<sup>6</sup>، ويقول أيضا: "...ولما انفصلنا وانحدرنا كمن العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغذاء فلما فرغوا منه أخرجوا أسلحتهم وما معهم من البارود... إرهابا لعرب العقبة... كذا"<sup>7</sup>.

وفي ذلك انفتاح على ثقافة مادية من خلال إبراز التقنية المستخدمة في مواجهة الخطر، انطلاقا من أن (في الثقافة المادية التقنيات مظهر من مظاهر الفعل البشري أي بحركة الإنسان في العمل... وهي علامة ومحرك للتطور الثقافي حسب الأنثروبولوجيين، كما

<sup>1</sup> الورتلاني "XE الورتلاني": الرحلة، مج 2، ص 377.

<sup>2</sup> نفسه، مج 3، ص 153-158.

<sup>3</sup> المصعبي "XE المصعبي": الرحلة، ص 69.

<sup>4</sup> جوزيف بيتس "XE جوزيف بيتس": الرحلة، ص 38.

<sup>5</sup> نفسه، ص 29.

<sup>6</sup> الورتلاني "XE الورتلاني": الرحلة، مج 2، ص 8-9.

<sup>7</sup> نفسه، ص 173-174.

أن الأشياء المادية تمثل تمفصلاً بين موضوع البحث وهو الثقافة المادية ومنهج بحث في المنهج الأثري... أي أن المخلفات المادية يمكن أن تخبر عن الثقافة المادية...<sup>1</sup>.

ولقد أثبت الخطاب الرحلي صراحة انتشار ظاهرة اللصوصية خلال العهد العثماني وهو من أهم المشاكل التي كانت تعترض الحجاج وتحدد حياتهم لا سيما في الطريق بين مصر {XE مصر} والحجاز، ففي منطقة عجرود يصفها الورتلاني {XE الورتلاني} "بأن المحل محل الغارات... لشدة جراً أعرابه على السرقة فإنهم من أجرأ الناس على ذلك... كذا"<sup>2</sup>.

ومن منطقة الخضيرة المسماة بالوعرات السبع حسب الحجاج يخرج الركب إلى ينبع النخل ثم مضيق ينبع وهناك خطر الأعراب قائماً فيقول الرحالة عن ذلك: "تأخر كثير من الصعاليك فخرج عليهم المحاربون وجرّدوا صعلوكاً وصاحوا ورجع إليهم بعض الحجاج فهربوا... كذا"<sup>3</sup>.

ومنطقة التيه أيضاً لم تسلم من خطر الأعراب إذ كان ركب الحجاج فيها في خوف كبير "... فإنهم في غاية الإهمال والتفريط والإفراط... فكانت عاقبتهم الخسران والأخذ والسلب... فدخلنا بعض المحاربين نحو الخمسة عشرة فارساً، فأخذوا جمالاً من وسط الركب وعليها من الحوائج والذهب، ما لا يعلمه إلا صاحبه، وقد سمعنا من بعض الثقات، ما يبلغ نحو ألفين، وهذا الذي ضاع لبعض الناس من بسكرة {XE بسكرة} وهو جندي أي تركي، وغيره ما أخذ له وسلب عنه... كذا"<sup>4</sup>.

ولهذا غالباً ما كان الحجاج يعانون من الفقر والحاجة، وفي هذا الصدد يقول الورتلاني {XE الورتلاني} "... وتركوهم فقراء مفلسين معدومين وسبب ذلك كثرة الإهمال وعدم الانتصار وفقدان القوة للقتال وكثرة النساء والصبيان... ولو كثر المحاربون لأخذوا جميعهم... كذا"<sup>5</sup>، أما بالنسبة للحجاز فكانت ظاهرة اللصوصية محل تركيز الرحالة فذكر الورتلاني القبائل المتلصصة ومنها (قبيلة حرب بن عسفان {XE حرب بن عسفان} والينبع وجهينة {XE جهينة} بين الينبع {XE الينبع} والأكره وبلي {XE بلي} بين الأكره إلى ما دون المويلح {XE المويلح} وقبائل الحويطات {XE الحويطات} وبني عقبة {XE بني عقبة}،<sup>6</sup> لذلك كان الحجاج يهربون ويتجنبون الأماكن التي يكثر فيها هؤلاء، ومن ذلك تركهم لمزارات مكة {XE مكة}، وأكد الرحالة بقوله: "... والناس في زماننا قد تركوا ذلك كله... إلا من شد من الناس لكثرة الإذائة والخوف من اللصوص، وقد زاد الفساد والظلم والتعدي من الأشراف وغيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدي، بل أقل شيء يقتلون عليه العبد، ولقد قتلوا صاحب أحبتنا في الله سيدي محمد قسوم على شربة ماء... كذا"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> أنظر جاك لوغوف: التاريخ الجديد، ص 333.

<sup>2</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج 2، ص 195.

<sup>3</sup> نفسه، مج 2، ص 197.

<sup>4</sup> نفسه، ص 551-550-545.

<sup>5</sup> نفسه، ص 554.

<sup>6</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج 2، ص 422.

<sup>7</sup> نفسه، ص 531. أنظر حول موضوع اللصوصية الصفحات التالية: مج 1، 130-257-267-268-271-404-424-435. مج 2، ص 8-9-195-195-161-164-168-172-173-174-175-184-185-192-196-229-236-376-373-374. تاركين ذلك لدراسة خاصة متعددة المقاربات.

وبين مكة {XE مكة} والمدينة يشير جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس} لظاهرة اللصوصية قائلاً: "وَأثناء هذه الرحلة تسبب لصوص البدو في المتاعب لبعض الحجاج لتسللهم القافلة عدة مرات، وذلك أن هؤلاء اللصوص ينقضون على أطراف القافلة ويخطفون خصوصاً الحجاج البعيدين عن بقية زملائهم ليجعلوا منهم خدماً أو مساعدين للجمالة، وعندما يرى هؤلاء البدو حاجاً قد استغرق في النوم فكوا رباط جملة من الأمام ومن الخلف ويقوم أحد اللصوص بقيادة الجمل بعيداً، بينما يكون الحاج نائماً فوقه ويقوم اللص الآخر... في الوقت نفسه بسحب الجمل الثاني ليربطه بجمل آخر بدلاً من الجمل المسروق حتى لا يتوقف إذا شرعت القافلة في المسير فتتوقف كل الجمال التي وراءه بطبيعة الحال مما يعني اكتشاف اللصوص... كذا"<sup>1</sup>.

وفي المدينة أيضاً يورد الورثلاني {XE الورثلاني} عن هذه الظاهرة بقوله: "ثم خرجنا مسرعين في أزقة المدينة إلى أن خرجنا من الباب الذي يخرج منه الحجاز {XE الحجاز}، وإذ بالناس منها يقولون إن العرب يضرونكم ويؤذونكم... والحالة خرجنا منها مع الخوف والحرامية يتبعون وراءنا إلى أن وصلنا إلى الركب... كذا"<sup>2</sup>.

وعليه أصبحت اللصوصية آفات اجتماعية في بلاد الوطن العربي خلال العهد العثماني تنبأ عن سياق تاريخي اجتماعي وسلوك انساني يكشف عن الحالة النفسية للحجاج، كما تمثل هذه الآفات الاجتماعية من الثوابت الفاعلة في المجتمعات العربية خلال تلك الفترة، وهو ما يضيف عليها صفة البيوية، كونها متكررة فهي آفات اجتماعية متكررة أو ثابتة (أو تكاد تكون كذلك في فسحة طويلة من الزمن وبذلك تنتقل النظرة مما هو استثناء إلى ما هو منتظم...)<sup>3</sup>.

فمن خلال الحديث عن ظاهرة اللصوصية كبنية اجتماعية تبرز أبعادها المتعددة فبعيدا عن كونها فهي آفات اجتماعية فهي تعكس في سياقها (صراع بين الأشخاص يستمد وجوده من القلق الاجتماعي والصراع الاقتصادي...)<sup>4</sup>.

كما تأريخ للمجتمع غير مطمئن يسوده الخوف والقلق بسبب تلك الظاهرة، اعتماداً على المعيين والهامشين أي الشرائح الاجتماعية الغائبة من المصادر، كما أنها يمكن أن تمثل مركز الثقل في البحث الاجتماعي الكيفي، والتي تنتج عن معالجتها: تحقيق إجراءات نستطيع بواسطتها الإبقاء على حياة اجتماعية منظمة.

الحصول على عادات وصفات ذهنية<sup>5</sup>.

أي التعامل مع ظاهرة اللصوصية من خلال إيلاء عناية أكبر للبعد التاريخي والثقافي النسبي في البحث الاجتماعي الأناسي (لأن الصلة بين الأناسة الاجتماعية والتاريخ قوية، حيث تبحث في المجتمعات يوصفها نظماً خلقية ورمزية، وهي أقل اهتماماً بالمجريات منها بالصيغ التصورية، وهي لا تبحث في النماذج والقوانين بل تبين التناسق بين العلاقات، بدل العلاقات الضرورية، وبذلك تقدم تأويلاً لا تفسيراً علمياً)<sup>6</sup>، وهي مقارنة تبرز بجلاء ضمن الخطاب الرحليمن خلال تناوله للآفات الاجتماعية.

<sup>1</sup> جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس}: الرحلة، ص 71.

<sup>2</sup> الورثلاني {XE الورثلاني}: الرحلة، ص 422.

<sup>3</sup> جاك لوغوف: التاريخ الجديد، ص 205.

<sup>4</sup> نفسه، ص 204.

<sup>5</sup> كريستوف فولف: علم الأناسة التاريخ والثقافة والفلسفة، ط1، نقل البروفيسور المرزوقي، الدار المتوسطية للنشر كلمة، أبو ظبي، 2009،

1430هـ، ص 131.

<sup>6</sup> نفسه، ص 134.

## 1-3- آفات أخرى:

ورد في سياق الآفات الاجتماعية ضمن الرحلات الحجازية من الجزائر {XE الجزائر} خلال العهد العثماني أشكالا متعددة، كانتشار البدع والخرافات كظاهرة مندمجة متداخلة، لا نبتعد في إلقاء الضوء عليها عن الأحداث التاريخية كونها واقعية، وإنما تضمنها أبعادا جديدة يجعلها من خصائص بنية المجتمع، فأشار المصعبي {XE المصعبي} في هذا المضمار ما لاحظته من بدع في مصر {XE مصر} بقوله: "...وفي ذلك في شأن الفرق الضالة المضلة المخالفين وتأملت فيما هم فيه من الدين فوجدته أساطير الأولين، وقد بدلوا قواعد الشريعة وأحكامها وهدموا بنايتها وأساسها وجعلوا عاليها سافلها وقلبوا لباطنها ظاهريا فليس لهم حينئذ نصيب من الإيمان ولاحظ في الإسلام إلا مجرد التلفظ باللسان... كذا"<sup>1</sup>.

كما وصف الورثلاني {XE الورثلاني} أيضا ما كان عليه المغاربة من بدع وخرافات بقوله: "...تمردوا على الطريق وصلوا وأخلو وهلكوا وأهلكوا والمنتسب بالدعاوي الكاذبة والزندقة البيثة أقواها العياد الكيمياء، وماحذا حدوها من كل مضل من غير تحقيق الدعوى كالعلم الأوقاف وإخراج الخبايا والكنوز من الأرض وإظهار الظلام وإصرار ذي الجن وإخدام الروحانيين... وتفريق الأحباب وتقريب البعيد وإقصاء القريب... فلما انتشر ذلك وعم الناس كلهم واتضح كذبهم وبطل تحيلهم وتصنعهم وقبح بعضهم في قلوب الخاصة فما رأوا أحد من المغاربة إلا غمضوا العين فيه وضنوا أنه من الفسقة المدعين المتلقين لأموال الناس بالباطل فالتبس عليهم الصديق بالزنديق فارتفع حسن الظن منهم في جانب المغاربة... وهذا من الفتنة العامة التي عمت المغاربة الظالم والمظلوم... كذا"<sup>2</sup>.

وأورد ابن عمار {XE ابن عمار} البدع التي انتشرت في الوطن العربي من ذلك ما يخص المولد النبوي بقوله "يجب صون مجالس المواليد ونحوها من القبائح والفضائح والشنائع التي صدرت من الناس مقترنة بعمل المواليد ولا سيما بمكة والمدينة منها اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وتزينهن بأحسن الحللي والحلل وتطيهن بأطيب الطيب اختلاطا فاحشا، بحيث يقع في تلك الليالي من المفاسد والقبائح ما تصم عنه الآذان... ويقول الموفق ليت ذلك ما كان ومنها نصب الشموع وإيقادها والعمر في سلطنة... كذا"<sup>3</sup>.

وفي سياق سوء الأخلاق وفسادها يرد خبر عن انتشار الوشاية والحسد فيذكر المقرئ {XE المقرئ} عما تعرض إليه من حسد العلماء بمصر<sup>4</sup>، وتكلم الورثلاني {XE الورثلاني} أيضا عن ذلك وما تعرض له في تونس {XE تونس} من حسد علمائها له<sup>5</sup>.

كما قدم في ذلك الرحالة أبو راس الناصري {XE الناصري} عرضا مختصرا لحسد علماء مصر {XE مصر} له على علمه وحفظه بقوله: "إن بعض العلماء اعتراهم الحسد والمكر وبدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر... كذا"<sup>1</sup>، كما أورد

<sup>1</sup> المصعبي {XE المصعبي}: الرحلة، ص 68.

<sup>2</sup> الورثلاني {XE الورثلاني}: الرحلة، مج 3، ص 157-158.

<sup>3</sup> ابن عمار {XE ابن عمار}: الرحلة، ص 99.

<sup>4</sup> المقرئ {XE المقرئ}: الرحلة، ص 48.

<sup>5</sup> الورثلاني {XE الورثلاني}: الرحلة، مج 1، ص 158.



أورد الرحالة عن هذا الكثير في مواضع متعددة، من ذلك ما تحدث به عن سبب خروجه من الجزائر {XE الجزائر} إلى فاس "XE فاس" بعد وشاية الحساد، إثر فتنة درقاوة، كما ذكر الورتلاني {XE الورتلاني} عن أولاد سيدي ناجي "أنهم يتحاسدون على تولية الرئاسة... كذا"<sup>2</sup>.

وعن الرشوة يورد المصعبي {XE المصعبي} ما حدث للركب في بنو ميزاب {XE بنو ميزاب} "حيث دارت بهم جماعة في موضع يقال له صفرى فتقدم كبارهم طالبين الرشوة ولعل المكس كان مقابل إيوائهم أو حماية قافلهم إلى مسافة معينة ولما كان المبلغ باهظا ثمانين ألف من ريال بطايقا... امتنع الركب عن أداء الرشوة وفضلوا الاعتماد على أنفسهم..."<sup>3</sup>، وهو ما تحدث عنه الورتلاني {XE الورتلاني} بقوله "إن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم وارتشاء لديهم وكان في غيرها من عمالة الجزائر {XE الجزائر}... كذا"<sup>4</sup>.

وفي هذا السياق لم يهمل الرحالة ظلم الحكام فيصف الورتلاني {XE الورتلاني} ذلك في بولاق {XE بولاق} مصرالذي شمل كل الفئات الاجتماعية {XE مصر} بقوله: "... إذ ظلم ولائها، قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين، حتى بلغ ظلمه الحاج المغربي والعلماء والطلبة والفقراء والأشياخ والصناع والتجار والمجاورين وسائر الناس قاطبة، لذلك ابتلاههم الله بالشقاء والفتنة، فكانت مصر لمن غلب... كذا"<sup>5</sup>.

وفي مجال الظلم يتحدث جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس} عن تحايل أهل مصر على الغرباء بقوله: "... وأهل مصر {XE مصر} خاصة أهل القاهرة {XE القاهرة} يتسمون بالفضاضة والانفعال، وهم بارعون في الغش والاحتتيال خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملهم ولا يعرفون أساليبهم في البيع والشراء، فعندما يضع المشتري بارا في يد البائع فإن البائع يضعها - إن أمكنه - في فمه ثم يتناول بمكر بارا أخرى غير الجيدة للمشتري قائلا إن بارته مغشوشة، وهم يسيئون معاملة الغرباء... كذا"<sup>6</sup>.

كما أشار الرحالة عن قبح عادات المصريين في الطواشية أو الخصيان، وهي ظاهرة منتشرة في معظم أسر الطبقات العليا في مصر {XE مصر} طواشية (خصيان)، مؤتمنون على الزوجات ويصحبونهن أينما ذهبن سواء للحمامات العامة أو إلى أي مكان آخر، ويثق سادة هؤلاء الطواشية فيهم ثقة كاملة ويحترمونهم بل ويدعونهم بألقاب السادة، ويرجع ذلك لرغبتهم في أن يكونوا صادقين مؤتمنين على زوجاتهم... ولا يبقى منهم على قيد الحياة بعد الخصي إلا القليل وعادة ما ينمو جسم الطواشي نوا هائلا، وتكون أصواتهم أنثوية، كما يكونون مردا لا ينمو الشعر في وجوههم... كذا"<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> محمد بن أحمد أبي راس الناصري: فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 114-115. هو رحالة من مدينة معسكر بالجزائر له رحلة حجازية بعنوان "فتح الإله ومنتته في التحدث بفضل ربي ونعمته" ألفها بعد رحلته إلى الحجاز سنة 1204هـ.

<sup>2</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، مج2، ص 255.

<sup>3</sup> المصعبي {XE المصعبي}: الرحلة، ص 60.

<sup>4</sup> الورتلاني {XE الورتلاني}: الرحلة، ص 110.

<sup>5</sup> نفسه، ص 559.

<sup>6</sup> جوزيف بيتس {XE جوزيف بيتس}: الرحلة، ص 38.

<sup>7</sup> نفسه، ص 40.



وفي ظل تفاقم هذه الأوضاع استنكرها العلماء، خاصة لما سكت عنها أهل العلم والدين والحكام، وهو ما عبر عنه الورثاني { "XE الورثاني" } قائلاً: "...فهذا أمر لا يليق بالعلماء بل يجب عليهم زجرهم والتنكر عليهم ما استطاعوا... وأما السلاطين فيجب عليهم التنكير والتغيير باليد، إذ وظيفة العالم اللسان ووظيفة السلطان اليد، لكن لما سكت العلماء زاد الناس في البدع وانتشر الخوف على الواقع... كذا"<sup>1</sup>.

وهو ما ورد لدى ابن عمار { "XE ابن عمار" } أيضاً مستنكراً سكوت العلماء على ذلك بقوله: "وقد وقع بالمدينة نظير ذلك أيضاً فسعيت في منع اختلاط النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج، وموسم سيدنا حمزة وموسم الحج، فعارضني جمع ممن العلم في عمائمهم دفن قلوبهم وأغرو بني السفهاء حتى أحم سعوا في قتلي.. كذا"<sup>2</sup>.

وعليه نجده يناشد عامة الناس في التمسك بدينهم والابتعاد عن المنكرات، وغير ذلك فقد أسهب الرحالة بذكر ما لاحظوه من مفاسد ومنكرات في بلاد الحجاز { "XE الحجاز" }، فيصف الناصري { "XE الناصري" } ما يحدث من فوضى في دخول مكة { "XE مكة" } بقوله: "وأعلم أن البيت في غير أيام الموسم، أن أريد دخوله ينصب له سلم، وفي أيامي رأيتها، فتحت مرراً، ولا أراهم من الازدحام نصبوا سلماً، وإنما يتكلف الأول الصعود على ظهر غيره، فيمد يده لمن تحته وتراهم يتزاحمون ويتحنون أوقات فراغ المسجد لجوف الليل، ومع ذلك لا يخلو عن زحمة وقلة احترام، فترى الرجال يتساقطون ويتقاتلون على ذلك... وربما اختلط النساء بالرجال حتى يتساقط الذكر على الأنثى، والأنثى على الذكر، ويلتف بعضهم لبعض، وأعظم ذلك ما يقع عند الركنين اليمانيين، فقلما يتمكن أحد كل التمكّن منهما وأفضى بهم إلى البدعة الشنيعة فيقطعون الأوقات بلثمها وطسهما، خصوصاً الأسود حتى إن حلا تشم منه بعض العفونات من الأيدي والأفواه... كذا"<sup>3</sup>، وقد تماثل معه الورثاني { "XE الورثاني" } في التحدث عن الازدحام في مكة خصوصاً عند فتح أبواب الكعبة الشريفة<sup>4</sup>.

أما المصعبي { "XE المصعبي" } فيورد حديثاً عن منكرات الحرم ويخص بذلك انتشار الأوساخ "...وكان أشدها على مصيبة وأعظمها وقوعاً ويلية ما ملئ به المسعى وأبواب الحرم تأثيرها من أرجاس بني آدم القبيحة الناشئة من تراكم الأركاب وقوتها فصار لأقبح المزابيل والمجازر متساويين ومرحاض الديار مماثلين حتى وقع ذلك في داخل الحرم وشوهد بين المسجد والمقام وغالبه من الفلاحين... إلى أن صار لا يقدر أحد على تعديته... إلا تلثم على الأنف واللسان... كذا"<sup>5</sup>، وكذا الناصري { "XE الناصري" } لما تحدث عما يحدث يحدث في الحجاز { "XE الحجاز" } من شجار على ماء زمزم مما يلوث المسجد الحرام<sup>6</sup>.

وفي هذا السياق تبرز كلمة محرم ومستنكر أنها تحمل معنيين الأول خاص بالثقافة المنبثق عنها<sup>7</sup>، وهي ثقافة إسلامية في الرحلة تحضّر وتحرمّ بعض التصرفات وتجعلها من المنكرات، كما ورد حول قضية اختلاط الرجال بالنساء، والثاني عام ومقارن يعبر عن الممنوع

<sup>1</sup> الورثاني { "XE الورثاني" } : الرحلة، مج 3، ص 130.

<sup>2</sup> ابن عمار { "XE ابن عمار" } : الرحلة، ص 99.

<sup>3</sup> الناصري { "XE الناصري" } : فتح الإله، ص 83.

<sup>4</sup> الورثاني { "XE الورثاني" } : الرحلة، مج 2، ص 278.

<sup>5</sup> المصعبي { "XE المصعبي" } : الرحلة، ص 61.

<sup>6</sup> أنظر الناصري { "XE الناصري" } : فتح الإله، ص 90.

<sup>7</sup> Webster (H): Taboo a sociological study, Stanford University Press, 1942, P 203.

والمنع<sup>1</sup> وعليه تبرز المحرمات ضمن الرحلة الحجازية حسب الطرح الأنثروبولوجي على أنها تحمل معنى: كلمة تابو "Tabos"، وهي (كلمة تركز على صفة القدسية، وقد أخبر بذلك دوركهيم لما قسم المحرمات إلى قسمين ما ترتبط بالمقدس وما يرتبط بالديني...)<sup>2</sup>، من هنا يأخذ هذا المصطلح ضمن الخطاب الرحلي شكلين مختلفين، أولهما دراسة تشبيهية لمعنى كلمة طابوا في الدين والمجتمع المسلم، ومن جهة أخرى دراسة مقارنة لمختلف أنواع المنع.

ومن نافلة القول فإن الأطر الاجتماعية من الثوابت الفاعلة في الكتابة التاريخية، التي تصطبغ بناء على ذلك بالإثنولوجيا وتحول الحدث إلى بنية تعبر عن تنظيم واتساق للعلاقات الاجتماعية الأكثر تباينا.

إن الأطر الاجتماعية بالنسبة للمؤرخ هي تركيب وهندسة، إذ تعبر عن واقع يؤثر فيه الزمن بصعوبة ويصل في عمره كثيرا وعندئذ تصبح تلك البنى التي تقابلها العادات والتقاليد أساسا ثابتا لأجيال متعاقبة تعطل مسار التاريخ وتتحكم في صيرورته، فالحدث عن الافات الاجتماعية، تحيلنا إلى دعامة حركة التاريخ في الخطاب الرحلي الحجازي خلال العهد العثماني، من خلال إحاطته الشاملة لمختلف النشاطات الإنسانية، وذلك في سياق النظرة الكلية للمجتمع، حيث عبرت تلك الظاهرة عن سلوكات وذهنيات وعقلييات المجتمعات العربية، وبالتالي الخروج عن الصور التقليدية للتاريخ، من خلال التعامل مع الحدث الذي يحول وفق نظرة جديدة تماما لذاته وبذاته متجاوزا التحول إلى رؤية أكثر شمولاً وتكاملاً بنيت على عوامل أعطت الحدث الاجتماعي أسبابه وجعلته يؤسس لنتائج إما تامة بذاتها أو سببية لحدث آخر.

وعليه فإن الافات الاجتماعية ضمن الرحلة قد ساهمت في بناء الصيرورة التاريخية من خلال التخلي عن الأحداث وحتى الوقائع (التي ليست فيها أحداث ولكنها مفردة لفائدة التكرار وحده...)<sup>3</sup>.

وهو ما يترجم لتخصص ثنائي المشارب، وهو التاريخ الاجتماعي أي كل ما ينتمي للإنسان، وما يعبر عنه وما يدل على حضوره، وبقائه وأذواقه وطرق عيشه وخاصة سلوكياته، وهو تاريخ يتعد عن تاريخ الإنجازات إلى تاريخ السلوك السليبي المؤثر في المجتمع.

#### خاتمة:

وخلاصة القول فإن الحديث عن الآفات الاجتماعية ضمن الرحلات الحجازية من الجزائر في العهد العثماني يؤدي دورا مركزيا في صياغة تاريخ المجتمعات العربية والإسلامية، ذلك أنها تعكس كافة أوجه السلوك الإنساني ضمنها وتلك العلاقات البينية بين الأفراد والأشخاص داخله وكذا العلاقات التبادلية، حيث شمل السلوك الإنساني والظواهر التي تتأثر به.

<sup>1</sup> Maranda (P) et Maranda (E) : Le crâne et l'utérus : deux théorèmes –Nord- Malitaine (Sous direction de l'échanges et communication, le Haye), Paris, 1970, P. 166.

<sup>2</sup> Durkheim (I) : Les formes élémentaires de la vie religieuses, Alcan, Paris, 1906, P. 107.

<sup>3</sup> أنظر فرانسوا دوس: التاريخ المفتت، ص 34.